



كان المشهد الافتتاحي من بطولة عمر البشير: رجل يحكم السودان منذ ثلاثين عاماً، بعد انقلاب عسكري على الحكومة المنتخبة آنذاك، عام 1989. مُلّاً حِلْيَةً دولياً بعد اتهامه بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية في إقليم دارفور. حكمه الفاشل أفضى إلى تقسيم السودان. معروفٌ ببطشه. أعلن أخيراً عن ترشّحه لـ"انتخابات 2020 الرئاسية.. وهو الآن يواجه انتفاضة شعبية، ضدّه وضدّ سياساته التجويعية، يصفها، كما يفعل بشار، بـ"المؤامرة الصهيونية"، تهدف إلى "النيل من سياساته الرافضلة للتطبيع مع إسرائيل".

ليس هناك من رمزيةٍ تتفوّق على هذه التي يجسّدّها البشير، بتدشينه موسم العودة العربية إلى بشار، بكلماتٍ ممتلئةً بذاتها، بلقاء حارّ مع بشار، بشوقٍ متبادل، وطبعاً بالنشوة المشتركة في الانتصار على شعبيهما، وقد سبق البشير بشاراً بعقود. ولعله الآن يتبادل معه النصائح، فيخلص إلى انتصارٍ آخر ضدّ انتفاضة المشتعلة في دياره؛ الأول يحمل للثاني خبرة "الصمود" بعد هذا الانتصار، فيما الثاني يستند وقت الشدّة. هل يحتاج المرء إلى رمزيةٍ أقوى من هذه: شبيه بشار الأسد، في كل شيء تقريباً، إلا توقيت شعبه، يشقّ طريق العرب، مجدداً، نحو دمشق.

يتقدّم العرب الباقيون بخطواتٍ خلفية، بعد المشهد الافتتاحي: كما صار معلوماً، الإمارات وسفارتها في دمشق، والبحرين واستمرار "عملها الدبلوماسي" مع سوريا، وزيارات علي مملوك إلى مصر وعمان وال سعودية. وهذه الأخيرة، أي المملكة السعودية، كانت تحتاج، وما زالت، إلى صكٍ براءةٍ على جريمةٍ لا تقلّ وحشية، بأسلوبها "المبتكر"، متهم فيها حاكمها الفعلي، أي ولّي العهد؛ جريمةٌ عنوانها جمال خاشقجي، تحولت بعد أشهر من ارتكابها إلى عين هابيل تلاحق كاين.. رمزٌ آخر لا يقلّ وزناً عن ذاك الذي يمثله عمر البشير: ملكٌ مقبل، يرتكب جريمة جديرة بالسلاطين، يزجّ في السجون أفلّهم ترحيباً به، لن

تكون لديه مشكلة مع بشار؛ إنما بالعكس، سوف يكون بشار رافعه المعنوية، فمجرد مقارنة بين جرائم الاثنين تريح ضميره، وتحول اغتياله خاشقجي إلى لعبة عيال، إذا ما قيست بالاغتيالات الصناعية التي قام بها بشار بحق ملايين السوريين. نعرف بكم، تعرفون بنا، عنوان "المصالحة العربية" و"رفع الحظر عن سوريا"، (تصريح السعودي مشعل السلمي رئيس الوفد السعودي في "البرلمان العربي" الشهر الماضي).

طبعاً، لا بد، في المقابل، من "تسريبات المصادر"، من نوع أن السعودية قادمة إلى دمشق، من أجل "تمويل إعادة الإعمار"، أو من أجل "مغارعة النفوذ الإيراني"، فقط الإيراني. وتحت هذين الدورين، "رؤى" سعودية للوضع السوري، من قبيل أن إعادة الإعمار مثلاً، أي تمويلها لها، مشروطة بـ"تقديم حل سياسي" في سوريا، وقوامه "الدستور والانتخابات ووضع المعارضة"؛ أي أن الحاكم السعودي فوق أنه عائد، ينظر في نظيره، يستعد بأدواته المناوراتية البسيطة أن يميك، أو يسامح، أو يتبحر في الصفقات.. ولا مرة إلا لصالحه، أي حماية عرشه.

أما العجيبة في هذا الفصل، فردة فعل الأسد ورفاقه من محور "المقاومة"، على هذه العودة. عنوان بحد ذاته، يلخصها: "هرولة المهزومين للعودة إلى دمشق". مقال لا يفوته انتصار الأسد، ولا ثباته فوق شعبه، ولا النهاية المخزية للثورة ضد بشار.. يستند إلى تلك الحقيقة، ليرفع شارة النصر، ليشمت بالعرب الذين قاطعوا بشار، ثم يعودون إليه اليوم ركضاً، بعدما وجدوا فيه صلابةً في مواجهة شعبه، هي أمتولة لهم، للسنوات العجاف التي تنتظرونها. مع أنه ليس هو الحاكم الآن. ولكن ذلك لا يهم، لا الشامتين ولا المهزولين، الواقعين بدورهم تحت أشكالٍ من النفوذ الخارجي. المهم الآن، بعدما أفشل العرب الثورة السورية، بعدما أشعوها "جهاداً" وأموالاً واعتباطياتٍ، وهذا طبيعي، نظراً لتركيبتهم غير السورية، ولا الثورية ولا الإصلاحية، ولا حتى التقليدية... بعد هذا الفشل، لا بد من اللقاء ثانيةً مع بطلٍ باع كل شيء من أجل كرسيه؛ لقاء دشنَه بطل آخر، كان سباقاً في ضرب الأرقام القياسية في الإجرام والفساد.

في الشماتة المماثلة من أولئك العرب، تجاهل، أو لغة أخرى. الواقع أن بشار ليس هو المنتصر. إنما الربيع العربي هو الذي هُزم. في بؤرته الأخيرة، سورية، الأطول أحداثاً، الأوسع دموية و厶اسة. ما من عربي، أو سوري واحد انتصر بحصيلة هذا الربيع. أصحاب الغنائم، الطامعون بموارد سورية وموقعها، ازداد عددهم، روسيا، إيران، تركيا، إسرائيل.. هذا غير الولايات المتحدة التي أضاعت نهجها من دون سطوطها، ولم تُعدْ تفهم تماماً موقفها، ولا تحركاتها على الأرض السورية. ولكن كل هذه "الأضرار" لا تساوي شيئاً أمام الرئاسة، السلطة، ولو الصُّورية. والعرب، بعودتهم إلى بشار، يكادون أن يصرخوا بلقائهم الوجودي العميق معه؛ ولن تزيد غنيمتهم عن التي انتزعها المتنافسون على سورية، الحائمون حولها كالضياع؛ ولكل ضبع نوح خاص به. ولكن لا بأس: صَيَّا براءة يتباريَان، يتساويان في الإفلات من العقاب، كلٌّ يخدم نفسه على قدّ حظه من القوة، على تنوع هذا الحظ، واختلاف سُبله.

نصيب لبنان من هذه "العودة" خير شاهدٍ على ذاك اللقاء الوجودي بين أنظمة الحكم العربية: الذين ينشدون العودة إلى سورية "المنتصرة"، لو كسبوا، فسوف ينالون مزيداً من السلطات والوزارات وحرية أكبر في السطو على خيرات الدولة. فيما غرماً لهم، لو عرموا كيف يذونون ألحانهم، ويضطرون إيقاع حركتهم، سوف يكسبون، هم أيضاً. المهم من يغتنم "حصتها"، بعودته إلى سورية، بشرط، أو من دونها. بحُماتها ورعاها والغربان المتناثسين على "إعادة إعمارها". عرباً كانوا، أو غرباء.